قَلْبُهُ الشَّريف

صلى الله عليه وآله وسلم

الإمام الشيخ

عبد الله سراج الدين

رحمه الله تعالى ورضي عنه

هذا البحث مقتبس من كتاب
(سيدنا محمد رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم)
من الصفحة ١٦٦ حتى الصفحة ١٧٦

للشيخ الإمام
عبد الله سراج الدين الحسيني
بناءً على توجيهات ولده
المهندس الشيخ
محمد محيي الدين سراج الدين
رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

ويمكنك تحميل هذه الأبحاث القيّمة
وتحميل جميع كتب الشيخ الإمام
من موقعه الرسمي والوحيد
WWW.SRAJALDEN.COM
قسم: كتب الإمام
تحميل كتب الإمام وتحميل أبحاث مختارة

مدير الموقع:
الشيخ عبد الله محمد محيي الدين سراج الدين

قلبه الشريف ﷺ

إن قلب سيدنا محمد ﷺ هو خيرُ القلوب وأزكاها ، وأوسعها وأقواها ، وأتقاها وأنقاها ، وألينها وأرقُّها ، وهو القلب الواعي اليقظان ، الفيَّاض بأنوار الإيمان والقرآن .

فخيرُ القلوب قلبه الشريف ﷺ ، جاء في (مسند) أحمد وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : (إن الله تعالى نظر في قلوب العباد ، فوجد قلبَ محمد ﷺ خيرَ قلوب العباد ، فاصطفاه لنفسه ، وابْتَعثه برسالته ، ثم نظر في قلوب العباد ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه ﷺ يُقاتلون عن دينه ـ فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رآه المسلمون سيِّئاً فهو عند الله سيِّءٌ)[1] .

كما وأن قلبه الشريف ﷺ هو أزكى القلوب وأطهرها ، فقد شُقَّ

---

(١) قال في (مجمع الزوائد) رواه أحمد والبزار والطبراني في (الكبير) ورجاله موثقون اهـ من الجزء الأول والثامن .

صدره الشريف منذ صغره واستُخرج من قلبه حظُّ الشيطان ـ كما روى مسلم وغيره عن أنس رضي الله عنه : (أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ﷺ ، وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه[1] فشقَّ عن قلبه ، فاستخرج القلبَ ، فاستخرج منه علقةً ، فقال : هذا حظُّ الشيطان منك[2] ، ثم غسله في طَسْتٍ من ذهب بماء زمزم ، ثم لأَمَه[3] ، ثم أعاده في مكانه ، وجاء الغِلمانُ يسعَوْن إلى أمّه ، يعني : ظئْره ـ أي : مرضعته ـ فقالوا : إن محمداً قد قُتل ، فاستقبلوه وهو منتَقِع اللَّون ـ أي : متغيرّ اللون ـ .

قال أنس : وقد كنتُ أرى أثر ذلك المِخْيط في صدره ﷺ) .

وهذا الشقُّ للصدر الشريف قد حصل له ﷺ أوَّل مرة وهو صغير السنِّ عند حليمة رضي الله عنها .

وقد اختُلف في سنِّه ﷺ وقتئذٍ ؛ فقيل وقيل ، قال الحافظ الزرقاني : والراجح أنه ﷺ رجع إلى أمِّه وهو ابن أربع سنين ، وأن شقَّ الصدر إنما كان في الرابعة ، كما جزم به الحافظ العراقي في (نظم السيرة) ، وتلميذه الحافظ ابن حجر في (سيرته) . اهـ .

وأما المرَّة الثانية : فقد شُقَّ صدره الشريف ﷺ وهو ابن عشر سنين ، وقد رَوَى ذلك عبد الله بن أحمد في (زوائد المسند) بسند رجاله

---

(١) أي : ألقاه على قفاه .

(٢) أي : نصيبه لو بقي معك .

(٣) أي : أصلح موضع الشق .

ثقات وابن حبَّان والحاكم ، وابن عساكر والضياء المقدسي في (المختارة) عن أُبيّ بن كعب أن أبا هريرة قال : يا رسول الله : ما أوَّل ما ابتُدئتَ به من أمر النبوَّة ؟ .

فقال ﷺ : « إني لفي صحراء ، ابن عشر حجج ، إذا أنا برجلين ـ أي : ملكين في صورة رجلين ـ فوق رأسي يقول أحدهما لصاحبه : أَهوَ هو ؟ قال : نعم ، فأخذاني بوجوهٍ لم أرها لخلقٍ قطُّ ـ أي : لحسن جمالها ـ ، وأرواحٍ لم أجدها من خلقٍ قطُّ ، وثيابٍ لم أرها على خَلْقٍ قطُّ ـ أي : لحسنها وبهجتها ـ فأقبلا إليَّ يمشيان ، حتى أخذ كلُّ واحدٍ منهما بعضدي ، لا أجد لأخذهما مسَّاً ، فقال أحدهما لصاحبه : أضجعْه ـ فأضجعاني .

ـ وفي لفظ ـ « فقال أحدهما لصاحبه : افلق صدره ، ففلقاه فيما أرى بلا دم ولا وجع ، فكان أحدهما يختلف بالماء في طستٍ من ذهب ، والآخر يغسل جوفي ثم قال : شُقَّ قلبه ، فشقَّ قلبي ، فأخرج الغِلَّ والحسَد منه ، فأخرج شبه العلقة فنبذ به . . » الحديث[1] .

قال العلامة محمد بن يوسف الشامي في (سيرته الشامية) : والحكمة فيه : أن العشر قريب من سنِّ التكليف ، فشُقَّ قلبه ﷺ وقُدِّس ، حتى لا يتلبَّس بشيء مما يُعاب على الرجال . اهـ[2] .

وأمَّا المرَّة الثالثة : فقد شقَّ صدره الشريف ﷺ عند مجيء جبريل

---

(١) انظر الحديث بنصه في شرح الزرقاني ١ : ١٥٣

(٢) انظر (شرح الزرقاني) وغيره .

عليه السلام بالوحي إليه حين نُبِّىء ، فقد روى أبو داود الطيالسي والحارث أبو محمد التميمي في (مسنديهما) ، والبيهقي وأبو نعيم في (دلائلهما) كلهم عن عائشة رضي الله عنها : « أن رسول الله ﷺ اعتكف هو وخديجة شهراً بحراء ، فوافق ذلك شهر رمضان ، فخرج رسول الله وسمع : السلام عليكم ، قالت ـ خديجة ـ : فظننتُ أنه فجأة الجنِّ ، فقال : « أبشروا فإن السلام خير » .

ثم رأى يوماً آخر جبريل عليه السلام على الشمس : جناح له بالمشرق ، وجناح له بالمغرب قال : « فهِبتُ[1] منه » .

فانطلق يريد أهله ، فإذا هو بينه وبين الباب ، قال : « فكلَّمني حتى أنِستُ به ، ثم وعدني موعداً ، قال : فجئتُ لموعده ، واحتبس عليَّ جبريل » وفي رواية : «فأبطأ عليَّ » فلما أراد أن يرجع إذا هو به ـ أي : بجبريل ـ وبميكائيل صلى الله عليهما فهبط جبريل إلى الأرض ، وبقي ميكائيل بين السماء والأرض ، قال : « فأخذني جبريل فسلقني لحلاوة[2] القفا وشق عن بطني ـ وفي رواية : فألقاني لحلاوة القفا ـ أي : وسطه ـ ثم شق عن قلبي ، فأخرج منه ما شاء الله ، ثم غسله في طسْتٍ من

---

(١) في رواية : « فهلت منه » . وهو من كلامه ﷺ .

(٢) هذا لفظ الحديث الوارد في (مسند) أبي داود الطيالسي ص ٢١٥ من الطبعة الأولى بمطبعة حيدر آباد .

وانظر بقية الروايات في شرح الزرقاني على المواهب ١ : ٢٢٥ . ومعنى سلقني : قلبني ، كما تفسره الرواية الثانية . وانظر (النهاية) لابن الأثير .

ذهبٍ ثم أعاده فيه ثم كفأني ـ أي : قلبني ـ كما يُكفأ الإناء ، ثم ختم في ظهري حتى وجدت مسَّ الخاتم » .

والحكمة في هذا الشقِّ ـ كما أفاده المحققون ـ هو الزيادة في إكرامهِ وإمداده ﷺ ، وتقويته وإعداده ، ليتلَّقى ما يُوحى إليه بقلبٍ قويٍّ في أكمل الأحوال القدسية المرضية .

وأما المرَّة الرابعة : فقد شُقَّ صدره الشريف ليلة الإسراء ، كما ورد في (الصحيحين) عن أنس رضي الله عنه ، عن مالك بن صَعْصَعة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ حدَّثه عن ليلة أُسري به : قال : « بينما أنا في الحطيم ـ وربما قال : في الحِجْر ـ مضطجعاً ، إذ أتاني آتٍ ، فشقَّ ما بين هذه إلى هذه ـ يعني ثَغْرةَ نحْره إلى شِعرته ـ ، فاستخرج قلبي ، ثم أُتيتُ بطستٍ من ذهبٍ مملوء إيماناً ـ وفي رواية للبخاري : بطستٍ ملىء حكمةً وإيماناً ـ فغُسل قلبي ، ثم حُشيَ ـ أي : حُشي إيماناً وحكمة ـ ثم أعيد

ـ وفي رواية للبخاري : ثم أُتيت بماءٍ بطستٍ من ذهب ممتلىء حكمةً وإيماناً فأفرغه في صدري ، ثم أطبقه ـ ثُمَّ أُتيتُ بدابَّة : دون البغل وفوق الحمار ، أبيض . . » الحديث .

والحكمة في هذا الشقِّ ـ كما أفاده العارفون ـ هي الزيادة في إكرامه ﷺ وإعظامه ، والزيادة في إمداده وإعداده ، للتأهب للوقوف بين يدي الله تعالى ومناجاته ، ومشاهدة الأنوار والأسرار ، وتجلِّيات الجمال والجلال .

قال في (المواهب وشرحه) ورُوي شقُّ صدره مرةً خامسةً وهو ابن عشرين سنةً ـ فيما قيل ـ ولا تثبت ، فلا تذكر إلا مقرونةً ببيان عدم الثبوت . اهـ[1] .

وقال الحافظ القسطلاني أيضاً : ثم إن جميعَ ما ورد من شقِّ الصدر واستخراج القلب ، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة : مما يجب التسليم له ، دون التعرُّض لصرفه عن حقيقته ، لصلاحيَّة القدرة ، فلا يستحيل شيء من ذلك .

قال الشارح الزرقاني : لأن القدرة إنما تتعلَّق بالممكن دون المستحيل ، هكذا قاله القرطبي في (المُفْهم) والطّيبي ، والتُّورْبشتي ، والحافظ في (الفتح) ، والسيوطي وغيرهم ، ويؤيده الحديث الصحيح أنهم كانوا يرون أثر المِخْيط في صدره ﷺ .

وقال أيضاً : قال السيوطي : وما وقع من بعض جهلة العصر من إنكارِ ذلك وحمله على الأمر المعنويّ ، وإلزام قائله القولَ بقلب الحقائق : فهو جهل صُراح ، وخطأ قبيح ، نشأ من خذلان الله تعالى لهم ، وعكوفهم على العلوم الفلسفية ، وبُعدهم عن دقائق السنَّة ، عافانا الله من ذلك ـ انتهى كلام السيوطي[2] .

فما أزكى قلب سيدنا محمد ﷺ وما أبرَّه ، وما أكرمَه وما أعظمه ! حقاً إنه أعظم القلوب وخيرها وأزكاها .

---

(١) انظر (شرح الزرقاني) ١ : ١٣٥

(٢) كما في (شرح المواهب) ٦ : ٢٥ .

سعة قلبه الشريف ﷺ وقوته :

قال الله تعالى : ﴿ نَزَل به الروح الأمين . على قلبك لتكونَ من المنذرِين ﴾ . ففي هذه الآية إيماء إلى تخصيص قلبه الشريف ﷺ بنزول القرآن عليه دون سائر القلوب ، وذلك لكمال اتساعه الذي منحه الله تعالى إياه وقوة تحمُّله لتنزُّلات القرآن العظيم ، الذي لو أنزل على الصمِّ الراسيات والجبال الشامخات ، لتصدَّعتْ وتشقّقت من خشية الله تعالى ـ قال تعالى : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبلٍ لرأيتَه خاشعاً متصدِّعاً من خشية الله . . . ﴾ الآية .

وإن قلباً نزل عليه القرآن الكريم بأسراره وأنواره ، وحروفه ومعانيه ، وروحه وحقائقه ، حقاً إن هذا القلب أوسع القلوب وأقواها ! قال تعالى : ﴿ وكذلك أو حينا إليك روحاً من أمرنا ما كنتَ تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكنْ جعلناه نوراً نهدي به مَن نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ .

فأفاض من بحر أسرار قلبه الشريف ، على قلوب أتباعه ، وأشعَّ في مرايا قلوبهم من مشارق أنواره ؛ ومن تدَّبر في قوله تعالى : ﴿ ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاءُ من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ فهم المعنى .

قلبه الشريف ﷺ أتقى القلوب :

جاء في (صحيح) مسلم عن أبي ذر في الحديث القدسي : « يا عبادي لو أن أوَّلكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى

قلب رجلٍ واحدٍ منكم : ما زاد ذلك في ملكي شيئا . . . » الحديث .

فهذا القلب الذي هو أتقى القلوب المشار إليه في الحديث ، هو قلب سيدنا محمد ﷺ الذي قال : « أما والله إني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له » الحديث في (الصحيحين) .

كما وأن قلبه الشريف ﷺ أنقى القلوب وأسلمها :

ففي (سنن) أبي داود عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا يُبلِّغني أحد عن أحدٍ من أصحابي شيئاً ، فإني أُحبُّ أن أخرج إليكم وأنا سليمُ الصدر » .

وروى ابن ماجه بإسناد صحيح عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال : قيل يا رسول الله : أيُّ الناس أفضل ؟

قال : « كلُّ مخمومِ القلب ، صدوقُ اللسان » .

قالوا : صدوق اللسان نعرفه ، فما مخموم القلب ؟

قال : « هو التقيُّ النقيُّ ، لا إثمَ فيه ، ولا بَغْي ، ولا غِلَّ ، ولا حسد » .

كما وأن قلبه الشريف ﷺ ألين القلوب وأرقها :

قال الله تعالى : ﴿ فبما رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم ولو كنتَ فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك . . . ﴾ الآية ، فلم يكن رسول الله ﷺ غليظ القلب بل كان ليناً .

وروى الطبراني عن أبي عِنَبة الخولاني أن النبي ﷺ قال : « إن

لله تعالى آنيةً من أهل الأرض ، وآنيةُ ربكم قلوب عباده الصالحين ، وأحبُّها إليه ألينها وأرقُّها »[1] .

يقظة قلبه الشريف ﷺ :

لقد أعطى الله تعالى رسوله ﷺ يقظة القلب ، فهو في توجُّه إلى الله تعالى ووَعي عنه دائمين ، لا تعتريه غفلة ، ولا يطرأ على قلبه ﷺ شائبة نوْمة ، ولذا كانت رؤياه المنامية من جملة طرق الوحي وأنواعه ، كما أن نومه لا ينقض وضوءه ﷺ ، وقد ثبت ذلك بالأحاديث الصحيحة .

ففي (صحيح) البخاري وغيره عن عائشة رضي الله عنها في حديث قيام النبي ﷺ بالليل ، قالت عائشة : قلت : يا رسول الله أتنام قبل أن تُوتر ؟ فقال : « يا عائشة إن عينيَّ تنامان ولا ينام قلبي » .

وفي (صحيح) مسلم عن عياض بن حمار رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « . . . وإن الله تعالى نظر إلى أهل الأرض فمقتهم : عَربَهم وعَجَمهم إلَّا بقايا من أهل الكتاب[2] ، وقال : إنما بعثتُكَ لأبتليكَ وابتليَ بك ، وأنزلتُ عليك كتاباً لا يغسله الماء[3] تقرأه نائماً ويقظانَ . . . » الحديث .

---

(١) قال الحافظ الهيثمي : إسناده حسن . وقال شيخه العراقي : فيه بقية بن الوليد وهو مدلس ، لكنه صرح بالتحديث فيه اهـ من (فيض القدير) للمناوي .

(٢) قيل : المراد بالكتاب هنا : الكتب السماوية السابقة ، فيكون الحديث محمولاً على حال الناس قبل بعثة النبي ﷺ فإن الجهالة عمتهم فأعمتهم ، فمقتهم الله تعالى إلا بقايا قليلة ممن تمسك بالكتاب : أي : بالكتب السماوية .

(٣) والمعنى : أن الماء لا يمحوه من الأرض ، فإن محي من السطور فهو محفوظ في

وروى البخاري عن جابر رضي الله عنه قال : « جاءتْ ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم ـ وفي رواية الترمذي : خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : إني رأيتُ في المنام كأنَّ جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي ـ فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة ، والقلب يقظان .

فقالوا : إن لصاحبكم هذا مثلاً ، قال : فاضربوا له مثلاً !

فقالوا : مثَلُه كَمَثل رجل بنى داراً ، وجعل فيها مأدبة[1] ، وبعث داعياً ، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدُبة

ومَنْ لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدُبة .

فقالوا : أوِّلوها له يَفْقَهْها ـ أي : يفهمها ـ فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان .

فقالوا : فالدارُ الجنةُ ، والداعي محمد ﷺ ـ فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله ، ومن عصى محمداً فقد عصى الله . . . » الحديث .

وفي (سنن) الدارمي : « أُتي النبي ﷺ فقيل له : لتَنَمْ عينُك ، ولْتسمَعْ أُذنك ، ولْيعْقل قلبُك ، قال : فنامَتْ عيناي ، وسمعتْ أُذناي ، وعقل قلبي .

الصدور ، وذلك لأن الله تعالى هو تكفل بحفظه حيث قال : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له الحافظون ﴾ فحفظه في محافظ وألواح لا يمحوها الماء ، ألا وهي صدور العلماء والقراء ، قال تعالى : ﴿ بل هو آيات بينات في صدور الذين أُوتوا العلم . . . ﴾ الآية .

(١) المأدبة : هي الأطعمة التي تعد للولائم ، والمراد بالمأدبة هنا الجنة .

فقيل لي : سيِّد بنى داراً ، فصنع مأدبة ، وأرسل داعياً ، فمن أجاب الداعي : دخل الدار ، وأكل من المأدبة ، ورضي عنه السيِّد ، ومن لم يجب الداعي : لم يدخل الدارَ ، ولم يَطْعَمْ من المأدبة ، وسخِط عليه السيِّد » .

قال : « فالله السيِّد ، ومحمدٌ الداعي ، والدار الإسلام ، والمأدبة الجنَّة » .

وقد ذكر علماء السلف والخلف طرق الوحي وأنواعه ، ومن جملتها رؤياه المنامية ﷺ ، كما دلَّ عليه حديث عائشة رضي الله عنها : (أوَّل ما بُدىء به رسولُ الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصَّادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلاَّ جاءتْ مثل فَلَق الصبح . . .) الحديث .

وقد استدلَّ السهيلي وغيره على أنها من الوحي بقول الخليل إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام لولده كما أخبر الله تعالى عنه : ﴿يا بُنَيَّ إني أرى في المنام أَني أذبحُك﴾ ثم قيامه بتنفيذ الرؤيا .